علمتني أمي

نورة بنت عبد الله بن سليمان بن غصاب ولدت سنة 1357هـ ونشأت في بلدة الصفرة، فلم تنشب أن فارقت والدتها الحياة وعمرها لمَّا يتجاوز الخامسة، وقامت أختها (الشقيقة) بدور الأم ولكن شاء الله أن تموت أختها بعد سنة واحدة فقط، وقد تزوجت في سن مبكرة من عبد العزيز بن عبد المحسن الدهيشي وأنجبت بنتها البكر (حصة) - فكانت تقول : كنت أعدها أختاً لي – ثم عبد المحسن وانتقلوا بعدها إلى مدينة الرياض مع زوجها وسكنوا بيت مسجد، فكان ملتقى للأقارب والجماعة ورزقوا عدداً من الأبناء والبنات، وقد ربتهم وأحسنت إليهم أيَّما إحسان، فكانت نموذجاً في التربية، ومثالاً في الخُلُق، ومدرسة في التعامل والتواصل، وقد نهلتُ منها وترعرعت تحت يدها في حياتها مع إخوتي وأخواتي ، وبعد مماتها مما علمته وسمعته وشاهدته من المحبين والأقربين والمعزِّين، وحالي حال القائل:

وكانت في حياتك لي عظاتٌ ......... فأنت اليوم أوعظ منك حيا

وهذا غيض من فيض ،وجدول من بحر، وعفو الخاطر المهموم المحزون من فراق أحب الناس وأغلاهم وأقربهم، قيدتها على عجل ودونتها دون تدقيق أو وجل، إبقاء للذكر، وتذكيراً بالفضل، وروماً للاتساء والاقتداء ،وقد توفيت رحمها الله وغفر لها وجمعنا بها في جنات ونهر ليلة الأربعاء الموافق 27/ 7/ 1437هـ وصلي عليها عصر يوم الأربعاء.

علمتني أمي.. تعظيم شعائر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصغير والكبير والقريب والبعيد ،فكم ساهمت في معروف وأنكرت منكرا ،ولها في البيت استنفار قبيل الفجر والعصر تتردد على الأبناء والبنات حتى أبناءها المتزوجين تطرق عليهم الأبواب، والتذكير بصوت عالٍ ،وربما الزجر لمن يتلكأ عن القيام، ممتثلة قول الباري (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) وكانت توصي بناتها بذلك، ومرة قالت لأحد أحفادها: (كانك منتب مصلي لا تنوم عندنا)، وفي مرة وبعد سفر ومشقة طريق وصلنا الطائف ليلاً فنمنا عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس فاستيقظت –رحمها الله- وهي وجلة مشفقة وكانت تقول : (ما أذكر آخر مرة فاتتني الصلاة!!)، وكانت تمنع (عرايس الأطفال) من دخول البيت ، وإن وجدتها رمتها أو أتلفتها مباشرة، ولها في المناسبات مشاركة وتفاعل مع توجيه وإنكار، عند رؤية منكر.

علمتني أمي.. الحرص على النوافل والمواظبة عليها من صلاة نافلة وصيام تطوع وعمرة وحج، فلم تك تدع قيام الليل وتستيقظ قبل أذان الفجر بساعة على الأقل، وسنة الضحى، وتداوم على صيام الاثنين والخميس وأيام البيض وكانت تتحسر على عدم صيامها ليوم الاثنين الآخر من حياتها حال مرضها، وقد اعتمرت وحجت كثيرا وعند سؤالها عن عدد حجاتها ترفض الإجابة، وصامت رمضان كاملاً في مكة في سنوات كثيرة يتعاقب عليها أبناؤها، وقبل وفاتها بساعات تحدثني عن شقتهم التي استأجروها لهذه السنة وأنها واسعة وكبيرة وفيها غرف كثيرة، والحمد لله على كل حال.

علمتني أمي.. أن الكرم ليس عن كثرة مال أو سعة مكان ولكن جذوة في النفس تنشأ وتترعرع في النفوس السخية والأخلاق العلية، فكم أقامت رحمها الله من وليمة تبدأ بدعوة الأبعدين قبل الأقربين ،وقد تستدين من أولادها وتوفيها كاملة بل زائدة، وكانت لها وليمتان في السنة لا تحيد عنها في عيد الأضحى وعشاء الناجحين سوى الولائم المتفرقة بين الحين والآخر، التي تصل إلى خمس أو ست ولائم في السنة ، وختمت ذلك بدعوة لإخوانها وأختها وأولاد أختها هيا وأولادهم وأبناء عمها إلى وليمة عيد الفطر القادم!! .

علمتني أمي.. معنى الهدية وأنها ليست في باهظ ثمنها أو عالي قيمتها ولكن في رمزيتها وتعاهدها، فهي تتعاهد أولادها –بنين وبنات- وأولادهم وإخوتها وأختها وزوجات الأبناء بل والخدم في البيت، بهدية سنوية بعد أدائها العمرة في شهر محرم أو صفر، فلا تسل عن قدرها وقيمتها في النفوس .. سوى الهدية الأسبوعية التي تخص بها الصغار والكبار في اجتماع آخر الأسبوع وسل يزيداً وبساماً ولبنى والجوهرة وأروى .. تنبيك عن حلاوتها وقدرها.

علمتني أمي.. حقيقة الصلة، وأنها أقوال وأفعال واتصالات وزيارات وتعاهد ودعوات ، لم يثنها كبر سنها، أو ثقل جسمها، أو دعوى أن الحق لها، مع أهل زوجها قبل أهلها، ومع أولاد إخوانها خصوصاً وأخواتها، وختمت ذلك باجتماعين واسعين في الشهر الفائت، الأول مع أهلها ، والثاني مع أهل زوجها، وكانت رحمها أول من يأتي ومن آخر من يخرج، بل في آخر يوم خميس لها في الحياة -وهو يوم اجتماع أبنائها وبناتها كلهم- ، آثرت به اجتماع أولاد وبنات أختها (هيا) لتحضره وتأنس بهم ويأنسون بها، ولن ننسى تلك الرسائل المبطنة بالمحبة والتقدير التي تزجيها إلى المقلين من زيارتها فقد قالت مرة لأحد أبناء إخوانها : (تدري أنك من عيدين ما شفناك) !!

علمتني أمي.. أهمية السعي في حاجة الآخرين وتلمس حاجاتهم والوقوف معهم، فكم جمعت من أموال وخاطبت وطلبت لفلان أو فلانة في معونة زواج أو تفريج كربة أو سد فاقة، فكم رسمت البسمة على محتاج وساندت معوزاً وأعانت متزوجاً .. وسل أرباب المال حمداً وسليمان ومحمداً وعبد المحسن وعبد العزيز يخبروك الخبر اليقين.

علمتني أمي.. التوازن في التعامل مع متع الحياة، فقد لبست المرقع من الثياب ومشت بدون حذاء أو بحذاء بخس حال الضيق وقلة ذات اليد ، وتقلدت الذهب والفضة ولبست الثياب الحسنة وحملت الحقائب (الماركة) حال السعة والقدرة على كبرها وتقدم سنها، متمثلة قول المصطفى (إن الله يُحِبّ أن يرى أثرَ نعمتهُ على عبدهِ) .

علمتني أمي.. العيش مع معاناة الآخرين وبلوى المبتلين هنا وهناك بالدعاء والتأثر لحالهم، وقبل وفاتها وعلى آخر سفرة غداء لها ذكرتُ أبناء العم الشيخ عبد الله وهيثم فانفجرت باكية وهي تدعو الله وتستغيث أن يفرج كربهم ويردهم لأهلهم ويقر عين والدَيهم بهم، ولا تفتأ تسأل عن إخواننا في فلسطين وسوريا واليمن وتزجي دعوات حراء وابتهالات صادقة بالنصر والتمكين.

علمتني أمي.. صدقة السر فكم بذلت وكفلتْ وتبرعت دون أن يعلم أي أحد خاصة عند دفع المال أو السؤال عن حال معينة، وربما تواعدك في وقت ومكان قصي لتبذل مالاً لفلان أو فلانة أو تسأل عن كفالة هنا وهناك، يقول أخي عبد الله: في إحدى المرات أوصلنا ثلاث حقائب ملابس لأحد البيوت المحتاجة في حي العود بعد صلاة الجمعة عن طريق مؤذن جامع أبي حيان وبعد ساعة تفاجأنا باتصال المؤذن يقول: إن أصحاب البيت وجدوا (500)ريال في إحدى الحقائب ونخشى أنها منسية، فسألتُ الوالدة، فقالت: لا ما نسيتها!! ولا تذهب إلى مكة إلا ومعها (أفراد) توزعها على الفقراء والمحتاجين، وهي تتصدق بشكل دوري من ملابسها وأثاث بيتها فلا تحتفظ إلا بالقليل، وبين الحين والآخر تبيع ذهباً وتقول: تصدقوا بثمنها.

علمتني أمي.. اللين حال السعة واحتمال الأمر في تقديم سفر أو نوع أكل أو مكان نوم أو وقت عمرة ، والحزم في حقوق الله تعالى خاصة في إيقاظ صلاة أو جمع صلاة حال المطر ولن أنسى اتصالها حال مطر غامر وتسأل هل جمعتم الصلاة؟ قلت : نعم، فأغلقت الهاتف مباشرة غاضبة.. أو في ما يتعلق في القيام بالحقوق الخاصة، فهي لم تتنازل البتة في أن تركب مع سائق، وتقول: أولادي سبعة ولن يعجزوا عني!! وتنزعج حال تأخر علاج أو نسيان حليب أو لبن، مما ساعد أولادها على برها والقيام بحقوقها.

علمتني أمي.. تعلق القلب بالله تعالى وأن الموت أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، فهي لا تفتأ من ذكر الموت والسؤال خاصة عن كيف مات فلان وفلانة، وتكرر دائماً (جعلي من حييلي إلى قبيري) فالموت حاضر والنفس مستعدة ،وهي على طهارة دائمة، وعند مرضها الأخير طلبنا أن تذهب للمشفى فنهرتنا وقالت: (والمستشفى وش بيسوون متوكلة على ربي) وتكرر (قبلنا معافين) (الحمد لله ما جا من ربي).

علمتني أمي.. معنى الوفاء لأبيها وأمها فكم اعتمرت عنهما وتصدقت لهما، وطلبت من بعض أولادها (عبد الله وأسامة) أن يحجوا عن أبيها وأمها، فضلا عن تلك الدعوات التي تشرك فيها والداها من الصغار والكبار حال تقديم هدية أو إعطاء عطية، فهي تلقن الصغار أن يقولوا دائماً : الله يعافيك و يجزاك خير وجعلك في الجنة ووالديك!

ووفاءها مع زوجها وأهله فكانت لا تَعدُّ أولاد أعمامي وعماتي إلا أولاداً لها، تسأل عنهم وتدعو لهم، ولا تولم وليمة إلا أمرتنا بالاتصال عليهم ودعوتهم للمشاركة، وإذا قدمت ابنة عمي (أم سعد) تأمر بناتها بتوسعة المكان لها وتفرح بها وتسأل عن أولادها الصغار والكبار.

علمتني أمي .. الهمة العالية والمثابرة في نيل المراد وتحقيق المطلوب، فكم تمنت أن تبني مسجداً بِحُرِّ مالها، حتى جمعت ما تستطيع وبني لها مسجد في جنوب المملكة بإشراف ابنها: الشيخ عبد المجيد، وبعد وفاة أبي (زوجها) بنت جامعاً كبيراً في تهامة استغرق أكثر من نصف ما ورثته من زوجها، وكانت تقول لي: المسجد الحمد لله تيسر، ولكن أغبط (أبوك) عنده وقف يتصدق منه، وودي بوقف!! وسيحقق لها قريباً بإذن الله.

ونشأت أُميِّة كحال سنيناتها فلم تستسلم للجهل، فدرست محو الأمية حتى تعلمت القراءة والكتابة وقرأت القرآن كاملاً، ثم تابعت تعلم قراءة القرآن بمتابعة مستمرة لبرنامج (كيف تقرأ القرآن الكريم) بإذاعة القرآن الكريم، وكان لها مصحف خاص وختمات متتالية، وآخر ختمة أتمتها قبيل شهر مع معلمة تأتيها ضحى كل يوم في بيت الأخ أسامة، ابتدأت من الفاتحة ثم البقرة إلى سورة الناس.

علمتني أمي.. تقدير الآخرين ومراعاة مشاعر الجميع ،ومعرفة فضل كل ذي فضل، فلم توجه لها دعوة من أي أحد صغر أم كبر إلا أجابت الدعوة وإن كان على حساب صحتها وضعفها، فمن آخر تلك الدعوات دعوة لمى بنت ابنتها فاستجابت مباشرة وشاركتهم العشاء، ودعتها ابنتها (خولة) قبيل أشهر معدودة لبيتها في الدور الثالث فلبت الدعوة بصدر رحب وروح عالية على كبرها وثقلها.. وكانت تفرح إذا استضافت إحدى بناتها أم زوجها وتحثهم بالإحسان إليهم وتوطئة الكنف معهم.

علمتني أمتي.. الحكمة في التعامل مع المشاكل الطارئة، والروية في اتخاذ القرار، وتغليب درء المفاسد على جلب المصالح بمشاركة فاعلة وحكمة بالغة، تجمع ولا تفرق وتألف ولا تألب، وكم وأدت من مشكلة ،وساهمت في علاج.

علمتني أمي.. حقيقة الهيبة وأنها ليست تفرضاً فرضا أو طلباً فيحقق، ولكنها مجموعة من الأخلاق والمثل السامية من اللين والحزم والمحبة والبذل حين تتمثل في النفس فيصدر عنها هيبة ووقار ومحبة وتقدير من الصغير والكبير.. وسل الصغير والكبير من أولادها وأحفادها وأسباطها ينبأك عن ذلك الشعور وتلك الهالة والهيبة الكامنة في شخصيتها رحمها الله .

وختاماً.. يظل الرجل طفلاً حتى تموت أمه فإذا ماتت شاخ فجأة.

فاللهم ارفع درجتها في عليين واخلفها في عقبها في الغابرين واجمعنا بها ووالدي وإخواني وأخواتي في عليين..

د. عمر بن عبد العزيز الدهيشي